

انتقام التاريخ من سياسات الظلم الاجتماعي الاهرام المصرية

22-07-2007

محمد السيد سعيد

تجوب جيوش صغيرة من الأطفال والشباب مختلف الأنحاء هاربة من تعقب الجيوش الرسمية أو باحثة عن منصة هجوم علي مؤخراته وأحيانا علي قواته الرئيسية. وأحيانا ما تنزل من الجبال باحثة عن طعام وشراب ومال في المناطق الريفية الفقيرة حولها فتنتشر الرعب بين السكان.

في الماضي كان هؤلاء الأطفال والشباب يجوبون شوارع المدن الرئيسية للتنزه والفرجة والتسلية. أغلبهم جاءوا من الارياف مدفوعين بقسوة البطالة والفقر بحثا عن عمل ولم يكونوا يجدونه, بسبب الركود في ظل الرأسمالية الخربة التي سادت افريقيا ومناطق واسعة من جنوب آسيا والكاربيي وغيرها من أشد مناطق العالم فقرا خلال الثمانينيات, وعندما توفر لأحاد الناس أو لمنظمات صغيرة فرصة الحصول علي المال وشيء من التدريب العسكري كان من السهل عليها ان تجند اعدادا كبيرة جدا من هؤلاء الأطفال والشباب, الذين تحولوا الي محاربين دون ان يتلقوا أبسط صور التعليم والتنقيف السياسي أو أبسط أخلاقيات الجندية.

ولكن هناك نمطا آخر تكون بالذات في العالم العربي بفضل عاملين رئيسيين فأولا ولدت التيارات والتنظيمات الاسلامية خلال عقد السبعينيات متوحشة وبالغة العنف والفضاظة ويبدو أنها رضعت مزيدا من التوحش في الجبال الأفغانية, ثم أشاعت التوحش في صفوف نفس الفئات من الأطفال والشباب العاطل والفقير الذي نجحت في تجنيده ببساطة مذهلة, وثانيا بدت هذه التنظيمات اكثر اقتدارا من الناحية المالية والتنظيمية عن مثيلاتها في إفريقيا والكاربيي وتمكنت بالتالي من تكوين جيوش أكثر تنظيما وطاعة للقيادات السياسية, وان احتفظت بقدر كبير من العنف العشوائي والسياسي القابل للانفجار في أية لحظة.

وتباينت درجات الانضباط تبعا لقوة الشخصية والثقافة السياسية والدينية التي تلقته القيادات العليا والوسيطه, ففي الحالة الأفضل علي الإطلاق وهي حزب الله اتسم الأداء بقدر عال من ضبط النفس والشعور بالرسالة ودقة الحركة والتخطيط فيما يمثل تجربة عربية أقرب ما تكون الي تجارب حركات التحرر الوطني في جنوب شرق آسيا خاصة التجربة الفيتنامية. ولكن هذا الكيان لم يكتسب هذا المستوي من الانضباط إلا بعد فترة خاض فيها الحزب حروب تصفية دموية حتي ضد أقرب الناس له مثل تنظيم امل والحزب الشيوعي اللبناني الذي كان اول القوي انطلقا لفعل المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي.

وسيبدو أن هذا النموذج المنضبط لم يتكرر كثيرا, ولا يكاد يقترب منه سوي حركة حماس الفلسطينية.

أما علي الجانب المضاد فيتسع لأغلب التجارب العربية للجيوش غير الرسمية, وتأتي تجربة التنظيمات

الصغيرة في الحركة الاسلامية الجزائرية والتنظيمات الشيعية والسنية في العراق بعد الغزو والاحتلال باعتبارها الأسوأ على الاطلاق. وتلتحق بها طائفة واسعة من التنظيمات الصغيرة التي تبنت الارهاب منهجا للعمل والحياة في عدد آخر من الدول العربية, بعد أن يبست من التنظيمات الكبيرة المعتدلة مثل الإخوان المسلمين أو الأقل تطرفا مثل جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر.

ما يهمنا هنا ليس تتبع أداء ومستوي انضباط وأخلاقيات تلك الجيوش الصغيرة و الكبيرة غير الرسمية أو ما اسميناه في الأسبوع الماضي العسكرتاريا الشعبية, بل منبتها الاجتماعي والظروف وتجارب الحياة التي دفعت لتكونها أصلا.

القانون العام يمكن وصفه كما يلي: حالة تصدع اجتماعي رهيبه تنشأ عن الفقر وظروف التربية الأولى التي تتم عمليا في خارج البيت والعائلة في سياق عام من انحطاط منظومة المعاني والتراجع المخيف في مصداقية نظام القيم السائد بسبب الفساد والقسوة والهزائم الخارجية والبطالة الممتدة مع الفقر وضعف مؤسسات الاستيعاب الاجتماعي نتيجة إخضاعها لسطوة الدولة البوليسية وعزوفها عن القيام بمهمتها في الدفاع عن مصالح الفئات التي تمثلها اسما على كل المستويات: النقابة, والمجالس البلدية والحكومة المركزية كل شيء يفقد مصداقيته فيدفع الأطفال والشباب للانجذاب للتلقائي لمنظمات سياسية وعسكرية تمنحهم الوظيفة والمال أولا, والمعني وخاصة لو استند علي مرجعية دينية ثانيا وحس الانتماء لجماعة وقضية ثالثا.

أما الظروف السياسية والاجتماعية الكلية التي تقود إلي هذا كله فقد تختلف اختلافات كبيرة.

حالة العراق نشأت في سياق قسوة خارقة لقائد ورئيس كان علي استعداد لذبح آلاف الناس بمن فيهم أساتذته ومن ساندته حتي وصل إلي القمة, وحرب ضروس استمرت ثماني سنوات لم تلبث أن انتهت بأعجوبة حتي لحقت بها حرب ثانية أشد دمارا لبنية الدولة والاقتصاد. ساد مناخ من الإعتام واليأس ارتبطت بفقدان الأهل في الحروب وتصدع العائلة والحي والقرية بتأثير شدة الفقر والحاجة والوضع الأخلاقي العام في المجتمع كمحصلة لهذا كله, في البداية قادت هذه الظروف إلي شيوع الجريمة العادية والسرقة, ثم إلي شيوع التنظيمات السياسية الطائفية التي نمت نموا مذهلا وسريعا بعد الغزو وبروز البعد الوطني والديني والطائفي باعتباره الأساس الوحيد الممكن عمليا للحركة السياسية والأداء العسكري.

الجزائر حالة تبدو أكثر اتساقا مع النموذج العربي العام, تجارب وطنية واجتماعية ثورية بدت ناجحة ورسينة في البداية, كان بعضها مرشحا للنجاح لولا السلبات الداخلية والانقلابات في السياسات الدولية. اعتمدت هذه التجارب علي اجهزة بيروقراطية محدودة أو متوسطة الكفاءة, فشل في تنظيم المجتمع وتعبئته بصورة حرة واصيلة, توظيف الاجهزة الامنية واطلاق يدها لا في ملاحقة الاعداء والخصوم وحدهم بل كل النشاط السياسي والاجتماعيين, واستيلاء الدولة علي جميع تنظيمات المجتمع المدني وافقادها مصداقيتها, ثم ازمة مالية طاحنة لاسباب شتى, ومع وفاة الزعيم المؤسس يأتي الي الحكم أضعف زملائه ليحدث فجوة اضافية في مصداقية الدولة التي تتضخم اجهزتها الامنية. ثم يبدأ التحول من السياسات الاجتماعية التقدمية باسم الاصلاح الاقتصادي الي سياسات انفتاح اقتصادي عشوائي يسبب تصدعا لبنية الاقتصاد التي تأسست في الماضي.

فتتراجع الصناعة, والزراعة وينمو بصورة خارقة وصاروخية, وينطلق التضخم السعري ليسبب تراجعاً اضافياً كبيراً في مستويات المعيشة, وتتسارع حركة الهجرة إلي المدن وخاصة مع تسارع استخدام الآلات والمعدات في الزراعة وتوقف التوسع في الأراضي المنزرعة وتركز الخدمات والاستثمارات في العاصمة وتراجع كفاءة نظم التعليم والصحة و الخدمات العامة الأخرى, لا يبدو أن سياسات الانفتاح والانتقال الي قوي

السوق تحقق نجاحا يذكر، في الوقت الذي تتوقف فيه الدولة عن أداء دورها التنموي ويتضخم الفساد بصورة سرطانية. ويبدأ الفقر في الضرب بشدة في صلافة التنظيم الاجتماعي بما فيه العائلة ليفضي الي تصدع اجتماعي وترهل سياسي مخيف فيخيم علي المجتمع شعور طاغ بالاغتراب وفقدان المعني والمصادقية مع انعدام العدالة والتخلص من بقايا التخطيط وصعود أرقام البطالة احيانا وسط غني فاحش.

في هذا النموذج العام أكثر العوامل الهدامة تأثيرا في دفع الشباب والأطفال الي الارتقاء في احضان جيوش غير نظامية تتحرك علي ضوء مرجعية دينية تبسيطية أو بأية مرجعية أخرى هو عشوائية الانتقال الي الرأسمالية بدون اعداد مسبق وكاف للاقتصاد والمجتمع في نفس الوقت الذي تسود فيه عملية العولمة الاقتصادية الرأسمالية. تتعمد القوي الاجتماعية التي دفعت لتسريع الانتقال الرأسمالي الزج في الاقتصاد إلي غابة الاقتصاد العالمي لتحقيق مكاسب خاصة عبر الوكالات والسمسرة والفساد بكل صورته، ونفس هذه القوي تدفع أيضا إلي تسويات سياسية غير عادلة تسود منطق الانهزامية الوطنية والقومية في الحالات التي يبدو فيها العدو بالغ الشراسة والعنف.

يتم بذلك تدمير نظم المعاني التي تربي عليها الناس لعقود. وفي سياقات تقود إلي مزيد من الفقر والتهميش وانحطاط القيم.. فتأتي الجيوش الشعبية لتسترد لشبابهم التائه والضائع بعض الانسجام النفسي وتسد حاجتهم للوظيفة والمال والشعور بالقيمة والكرامة.. حتي ولو عن طريق عنف أسود وجنوني وفاقد لأي مستقبل سياسي أو اجتماعي.. من يهمله المستقبل في حالات كهذه يصبح أقلية تعض علي العقل بالنواجذ عندما يبقي شيء منه، ويصبح الضحايا جلادين والعكس.

ينتقم التاريخ من العشوائية في تفكير وسياسات الطبقة السائدة وإن كان من يدفع الثمن هو المجتمع كله.